١١-الوهم الجديد

يرى بعض عقلاء القرية أن الفرق في العقول بين الأمس البعيد، والحاضر فرق كبير، العقول أصبحت أضعف فقد كانت بالماضي تستنير بنور الفطرة، أما اليوم فلم تغير التكنولوجيا الكثير في حياة الخاملين، إلّا بتوفير بعض من المنتجات الصناعية، وبعض من البرامج التلفزيونية التي تبث عبر الفضائيات لاستهلاك الوقت، وبعض من الفنون أكثرها هابط، أما ما ينشر على "الفيس بوك"كان يملأ فراغ الشباب العاطلين عن العمل، بالكثير من الأكاذيب، فطمست الحقيقة بالزيف.

مع انفجار محول الكهرباء الذي يغذي القرية، عاش الكثير من الناس في قرية "كفر الهوى"ليلهم في ظلام دامس، كظلام عقولهم المغلقة، فبعد نفاذ البطاريات المشحونة التي تغذي الكشافات الكهربائية، توقفت الإضاءة النظيفة، ولم يجد أهل البلدة سوى الشموع للإضاءة.

وبعد انقطاع الكهرباء بقرية "كفر الهوى"، وبطرح عدم القدرة علي متابعة الدش، والإنترنت من حياة أهل القرية لم يتغير الكثير، لقد عادوا يحتضنون التخلف الجاسم فوق صدورهم، بكل صوره البدائية، بأن أحيوا شرور التقاليد البالية، فقد نسي الكثير منهم الكهرباء، وبحكم العادة تعايشوا مع الواقع، يقصون أحداث الماضي، ويكشفون الستر عن أنفسهم بذكر الفضائح القديمة والجديدة، فكل حلقة من البشر باتت تجلس تخوض في أعراض الحلقة التي تجاورها، إلّا قليلاً منهم التزم بيته، وأمسك لسانه عن تتبع عورات الآخرين.

بدأت القرية تعد العدة لإحياء الليلة الكبيرة، وقد بحثوا عن مداح يحي ليلة صاحب الضريح، فلم يجدوا، وأخير أسندت المهمة لـ"شفيق الخفير" فقد كان ذا صوت جميل، ويحفظ بعض التواشيح التي لا يفهم معناها، وأحضروا له فرقة موسيقية متخصصة في موسيقى الإنشاد الصوفي، عازفوها طاعنون في السن، لنصب حلقات يطلقون عليها حلقات الذكر، لا علاقة لها بالذكر من قريب أو بعيد، وعادت قرية "كفر الهوى" تُحي مناسبة قد ماتت منذ أمد بعيد، وذلك بالدجل تارة، وبالوهم تارة أخرى، فذبحوا الذبائح كل على قدر استطاعته، فمنهم من يذبح دجاجة، ومنهم من يذبح أوزة، ومنًهم من يذبح خروفًا، وهرول الباعة ينتظرون المساء، وينصبون فرشتهم لبيع الحلوى والحمص واللب والفول السوداني، ولعب الأطفال.

كانت "المقاليع" التي يمسكها الرجال وهم يتطوحون يمينًا ويسارًا على دقات الدفوف قد أصابها الصدأ، فتجمع النسوة بالمنظفات يزيلون طبقات الخبث من فوقها، وكان المقلاع عبارة عن سيخ حديدي قطره واحد سنتيمتر، وطوله نصف متر تقريبًا، وفي نهايته رأس حديدة صغيرة كبيضة الدجاجة، ومعلق بها عدة سلاسل رفيعة، وتنتهي كل سلسلة برأس كحبة العنب.

وعندما حل المساء، وفي الليلة الموعودة تجمع الرجال والنساء للاحتفال بليلة الشيخ المبروك، وقامت "شفعات" بتسليم كل رجل مقلاعًا، يثبت طرفه على كف يده اليمنى، والطرف الآخر على كف يده اليسرى، ومع دقات الدفوف، والطبول، يُلف المقلاع بيديه فتنتصب السلاسل الصغيرة المشبوكة بالرأس البيضاوي كأنها مروحة، وبدأ الحفل برقصة تشبه رقصة "التنورة".

وبعد انتهاء وصلة الرقص بالمقاليع، بدأت وصلة جديدة من وصلات الذكر المزعوم، حيث وقف "شفيق الخفير" ينشد التواشيح، والرجال يتحركون بنصف جسدهم الأعلى يمنًا ويسارًا، على دقات الموسيقى الصوفية، يذكرون الله، ويقولون:

- الله حي ، الله حي

وكلما سقط رجل على الأرض قام بعض الرجال الشداد برفعه، ونقله نحو فناء الضريح وسط زغاريد النساء، فقد كان بعضهم يفسر حالة الإغماء جرّاء

كثرة هز الجسد بقوة، بأن الشيخ "يوسف الغريب" قد ناداه ليعطيه البركة، ومع الوقت يتساقط الرجال إعياءً، حتى تنتهي "طبقة الذكر" بالمنشد، وبعض من الرجال المنهكون من المجهود الشاق، دون أن يدري أحد تفسيرًا لماذا لم يطلب صاحب الضريح هؤلاء الباقين دون إغماء.

وفي اليوم التالي حان موعد الموكب الذي سوف يجوب القرية، فتجمع الناس عند المسجد الكبير للحاق بالركب، عندئذ خرج شيخ المسجد يطردهم، وكادوا أن يفتكوا به، تركهم فراراً بحياته، وتراجع عن موقفه عندما وجد نصف الحضور غارقين في الخرافات الشائعة، والنصف الآخر يدخن "السجائر" المحشوة بمخدر "البانجو"، ولكن حدثت معضلة، فلم يجدوا رجلًا يمثل دور الخليفة، أوحصانا ليركبه الخليفة، فأشارت "شفعات" بأن يلبس "شفيق الخفير" زوج ابنتها ملابس الخليفة، ويدور القرية فوق "توكتوك" مكشوف.

كان المنظر شبيهًا بالمسلسلات الهزْلية، البعض خرج يتابع الموكب كي يضحك بسخرية، والبعض مخدرًا بالوهم، والبعض يقلد الساخرين تارة، والواهمين تارات أخرى، بيد أن"كعبول النعسان" وقف يعترض الموكب قرب الضريح ، ويصرخ في الحضور:

- يا بشر لا يوجد في هذا الضريح أي شيوخ، الراقد أسفل التراب ليس بالشيخ "يوسف الغريب"، إنه الحمار الأعور الذي سُرق من شيخ البلد المُتوفي منذ أكثر من مائة عام، وأنتم اليوم تطلبون البركة من حمار تحت الثرى، لا ينفع ولا يضر، والدليل على صدق كلامي أننا كنا نتوارث تقاسم النذور حتى لا يبوح أحدنا بالسر، وما دامت "شفعات"ستحتفظ بالنذور لنفسها لا داعي لكتمان هذا السر، ويمكن نبش هذا الضريح للتأكد، وسوف تجدون جمجمة الحمار الأعورأسفل هذا المقام.

سادت حالة من الذهول بين الناس، إلّا أن "شفيق الخفير" وقف من فوق "التكتوك"مدججًا بجهله وأغراضه المادية، فمن مصلحته أن تستمر تلك الأكذوبة بعد أن تُوج فوق عرش الدجل خليفة للدهماء، فأخذ يخطب في الناس قائلاً:

- أيها الناس لا تسمعوا لهذا السكير الفاجر، حتى وإن كان من أسفل هذا الضريح حمارُ، ما هي المشكلة مادام هذا الحمار مبروك، وله كرامات تظهر منذ عشرات السنين بيننا، ألم تحمل الكثير من السيدات عندما وهبت له النذور؟ لا تنصرفوا عن البركة أسفل هذه القبة، وتمسكوا بشيخكم، وإن كان حمارًا، مادامت له كرامات.

انتفض نصف من بالموكب ينسحبون من الحفل المزيف، نادمين على الحياة في ظل هذه الخرافات ردحًا طويلًا من الزمن، وبقي المغيبون يهللون، وهم يدورون حول الضريح، كما يدور الطور في الساقية، في طريق دائري لا ينتهي، لم يستوعب الغارقون في الجهل والمخدرات الدرس، وظلوا يدافعون بكل قوة عن ذلك الحمار المدفون بقاع الأرض.

كل هذا يحدث والعمدة "دياب النمر" في سعادة بالغة، فقد تخلص من غريمه "سيف جاد" بإغراقه في إدمان المخدرات، وأودع ما بقي من الساخرين في حضن الضريح يتعلقون في أحبال السراب، وذلك عندما بث بعضًا من رجاله بالقرية يذكِرون الناس ببركات مزعوعة للشيخ صاحب الضريح، فقد علم من "فهد السكران" أن حرق المحول لم يكن سببه ما نذرته "حميدة" للشيخ، إنما بحيلة من المهندس "ضياء" مدير صيانة المحولات الكهربائية، فقد أوعز لأحد الفنيين بتدبير حيلة تؤدي إلى حرق محول الكهرباء الذي يغذي قرية "كفر الهوى" ،حتى ينصرف أهل القرية عن السخرية من العمدة على صفحات "الفيس بوك"، وقد تم تنفيذ الحيلة بدقة، وتم حرق المحول الكهربائي، وسوف يتم عرقلة إصلاحه لمدة شهرين حتى ينسى الناس السخرية من "دياب النمر"على صفحات الشبكة العنكبوتية.

كانت الصدمة شديدة على "حميدة" بيد أنها آفاقت تلعن الوهم الذي عاشته لعدة عقود، وتساءلت بينها وبين نفسها :

- يارب كيف عشتُ أعتقد في كرامات حمارٍ أصبح رمادًا في باطن الأرض؟ كم كنت واهمة ومخدوعة !

جلست يائسة نادمة، ولولا ما سمعته من "كعبول النعسان" لفارقت الحياة وهي مغروسة في حضن الدجل.

أما "غريب" لم يصمت منذ تم إعادة إحياء ذكرى الشيخ المزعوم، فكان يصرخ محذرًا من اتباع النصابين، دون جدوى، لقد تيقن أن لدى الكثير من البشر استعدادًا فطريًا في تصديق الخزعبلات، وأن شيوع الأكاذيب يتطور بتطور التكنولوجيا، فأصبح تسويق الفُجر يتم عبر الإنترنت بدلاً من تناقله بين الأجيال بالحكي، صعدت فوق صفحات "الفيس بوك" الملايين من الأضرحة المقدسة، وكل ضريح يعج بخرافاته وأكاذيبه، للتأثير على سلوك البشر لأهداف متنوعة، والعامة يصدقون ما ينشر بلا فرز أو تفكير، حتى وإن كان المنشور ضد مصالحهم، فرغم الإيجابية المتمثلة في التعارف الإنساني، وحرية التعبير، وتبادل المعلومات، ونقل محتويات الأبحاث العلمية، والكتب الفكرية، والأدبية، عمت العشوائية في ثنايا الحرية، فاختلط الحابل بالنابل، عندما طمس الوجه المشرق للإنترنت بالفوضى بغرس بذور الفتن، وغيرها من شرور فوق باحة الفضاء الإلكتروني.

تذكر "غريب"بمرارة قبيل عودته لمصر كيف تمت دعوته للعمل بإحدى الكتائب الإلكترونية على صفحات الفيس بوك، بالقسم الموجه للعرب، كان عمله لا يتجاوز نصف ساعة باليوم، يقوم خلالها ببث بعض المشاركات، والتعليق على منشورات أخرى بتعليقات مكتوبة باللغة الإنجليزية ومرسلة له، وكان دوره ترجمتها إلى اللغة العربية، كان المحتوي يحض على العنف تارة، وتارة أخرى على بث الأفكار التي تحض على الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، أوالمسلمين والمسحيين بالشرق، وتارة بقلب الحقائق بتصوير الشرفاء خونة ولصوص، واللصوص بالشرفاء.

كان عليه الانسحاب منها مدعيًا أن نظره ضعيف، وأن الطبيب قد منعه من الجلوس على أجهزة الكمبيوتر حتى لا تتفاقم حالته الصحية، وأبلغ المسئول أنه سوف يعود للعمل حال شفائه، وذلك تحسبًا لرد الفعل، فربما تكون تلك المواقع تابعة لأجهزة مخابرات تريد تسوىق أفكار معينة بغية تحقيق هدف محدد، والجهر بمعارضة أهدافها قد يعرضه للتصفية الجسدية، أو تابعة

لحركات متطرفة، انسحب بهدوء، وعزم علي أن يفضح هؤلاء بعد عودته إلي مصر، ولكنه عندما نشر هذه الواقعة بعد رجوعه علي صفحته وفي الكثير من الصفحات العامة لم يلتفت أحد إليها، بل وجد عندما عاد إلى قريته أن أهلها يمارسون تلك الشوشرة الإلكترونية تلقائيا، بتداول الإشاعات على أنها حقيقة، أو بمشاركة المنشورات المضللة القادمة من جهات غير معلومة دون تفكير.

كان "غريب" من القلائل الذين اشتروا مولدات كهربائية صغيرة تعمل بالسولار، بمزرعته، ومنزله، وهذا مكنه من الاتصال بحبيبته "رجاء" خلال هذه الأيام العجاف.